مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد 08 العدد 01 جانفي 2025 ص ص 72ـ84
ر س ع و (ISSN): 2602ـ618X / ر س ع و إ (E-ISSN): 2710ـ8031

أحوال المجتمع الأندلسي من خلال كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار لسان الدين بن الخطيب

The conditions of Andalusian society through the book Mi'yār al-Ikhtiyār fī Dhikr al-Ma'āhid wa al-Diyār" by Lissane al-Din Ibn al-Khatib

نوارة شرقي ♦ جامعة ابن خلدون-تيارت ، nouarahis04@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2024/10/15	تاريخ القبول: 2025/01/09	تاريخ النشر: 2025/01/31

الملخص باللغة العربية:

الملخص: يعتبر لسان الدين ابن الخطيب الغرناطي السلماني من أبرز الشخصيات الإسلامية عامة والأندلسية خاصة في العصر الوسيط ؛ فقد كان رجل سياسة وقلم ، شغل كثير من المناصب المهمة ، وكان عالما موسوعيا بحق ؛ ألف في شتى أصناف العلوم بدءا بالسياسة والتاريخ و الجغرافيا ، والتصوف والموسيقى وصولا إلى علم الأوبئة و الطب ، كما لا ننسى حظ الأدب في كتاباته ، فأجاد فيه نثرا وشعرا وبشهادة صديقه ابن خلدون الذي قال عنه " أنّه آية من آيات الله في النظم والنثر ، والمعارف والأدب ، لا يُساجل مداه" . ومن هذا المنطلق وقع اختيارنا على أهم كتبه الأدبية كتابه "معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار" ، الذي صاغه على هيئة مقامة أدبية ذات منهاج أدبي وأسلوب فني بديع ، وكان الكتاب على شكل قصة قصيرة محدودة حملت إلينا معلومات في غاية الأهمية التاريخية عن حال الأندلس وأهلهم.

وعليه فإنّ هذا البحث يروم من خلال الكتاب إلى الولوج في ذهنية وسوسيولوجية المجتمع الأندلسي من خلال الكشف عن طباع وأخلاق أهل مدنها وبذلك نساهم في ملء الفراغ الذي يسود حقل تاريخ الإجتماعي والمعتقدات والأفكار للمجتمعات.

● الكلمات المفتاحية: ابن الخطيب ، معيار الإختيار ، الأندلس ،المجتمع.

Summry

Lisān al-Dīn Ibn al-Khatīb al-Gharnāṭī al-Salmānī is considered one of the most prominent Islamic figures in general, and Andalusian figures in particular, during the medieval period. He was a man of politics and the pen, holding many important

♦ المؤلف المرسل

positions, and was a truly encyclopedic scholar, authoring works in various fields of knowledge, starting with politics, history, geography, Sufism, and music, extending to epidemiology and medicine. He did not forget literature in his writings, excelling in both prose and poetry, as testified by his friend Ibn Khaldun, who said of him, "He is a wonder of God's wonders in poetry, prose, knowledge, and literature; no one can rival his scope".

Based on this, we have chosen one of his most important literary works, his book *Mi'yār al-Ikhtiyār fī Dhikr al-Ma'āhid wa al-Diyār*, which he composed in the form of a literary *maqāma* with a unique literary approach and a beautiful artistic style. The book takes the form of a short story that provides us with extremely important historical information about the state of al-Andalus and its people.

Thus, our research aims to delve into the mentality and sociology of Andalusian society by uncovering the character and morals of the inhabitants of its cities, thereby contributing to filling the gap that exists in the field of social history, beliefs, and ideas of societies.

Keywords: Ibn al-KhatĪb, Mi'yār al-Ikhtiyār, al-Andalus, societ

مقدمة:

لطالما قدمت الأندلس مفكرين من الطراز الأول ، لا يزال تراثهم يخلدهم إلى أيامنا هذه ، فالبشرية جمعاء استفادت من مصنفاتهم في مختلف المجالات والتخصصات ، ولعل لسان الدين بن الخطيب السلماني كان من أبرز الأسماء التي كتبت أحرفها عند أجيال العلماء والمثقفين ، فقد كان هذا المفكر والسياسي والفقيه عالما موسوعيا بحق ، ألف في شتى صنوف العلوم بدءا بالسياسة والتاريخ ، ثم التصوف وعلم الأوبئة والطب ، كما لا ننسى حظ الأدب في كتاباته والذي كان الأوفر ، لأن أسلوبه الأدبي الراقي كان حاضرا في كل كتاباته.

ومن أهم كتبه الأدبية كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاصر والديار ، الذي ألّفه على شكل مقامة أدبية ذات منهاج أدبي رصين وأسلوب فني بديع ، فكان الكتاب في شكل قصة محدودة ، حملت إلينا زخما مهما من المعارف بخصوص المجتمع الأندلسي ، ففيه وصف لمدن الأندلس التي كتب عنها وفق مشاهداته الشخصية ، ومن هنا تأتي إشكالية هذا البحث متحورة فيما يلي:

● هل يمكن أن يعتبر معيار الاعتبار مرآة عاكسة نقلت لنا حال بلاد الأندلس في عصر المؤلف؟ ، وهل برع ابن الخطيب في هذا النوع من الكتابة مقارنة بمصنفاته في العلوم الأخرى التي كتب فيها باحترافية منقطعة النظير؟

● **التعريف بابن الخطيب**:

ترجم لابن الخطيب عدد غير قليل من العلماء والمفكرين المسلمين وغير المسلمين وأهل المعاجم والموسوعات عبر العصور، وهذا بفضل تراثه الفكري الذي وصل إلينا ، فهذا عبد الرحمن بن خلدون يقول عنه: الوزير بن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر والمعارف ، والأدب لا ساجل مداه ولا يهتدى فيها بمثل هداه[1] ، هذا عن معاصريه أما الذين جاؤوا بعده فقد قال عنه أحد الباحثين أنه كاتب الأرض إلى يوم العرض.[2]

وهو لسان الدين أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن أحمد السلماني ولد في لوشةloja) [3]) في 25 رجب سنة 713 هـ الموافق لـ 16 نوفمبر 1313م ، نشأ شغوفا بحب العلم كلفا بجمعه وتدوينه[4] ، ترعرع في غرناطة وبها تلقى دروسه الأولى.[5]

تدرج في سلم المناصب السياسية والإدارية في عهد المملكة النصرية بغرناطة ، فكان وزيرها وأديبها ، تنوعت اهتماماته فشملت علوم عصره ، وصنّف في شتى العلوم كالتاريخ والجغرافيا ، الطب ، الفلسفة ، الأدب ، التصوف.[6]

---

1 - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي) ، رحلة ابن خلدون ، عارضها بأصولها وعلى حواشيها محمد بن تاويت الطنجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 2012 ، ص 135.

2 - شوقي ضيف ،الفن ومذابه في النشر العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط10 ، ص 335.

3 - أبخل جنثاث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط2 ، 2013 ، ص 292.

4 - محمد بن أبي التطواني ، ابن الخطيب من خلال كتبه ، دار الطباعة العربية ، تطوان ، 1954 ، ص 32.

5 - أحمد مختار العبادي ، حياة ابن الخطيب المغربية ، مجلة البيئة ، س1 ع1 ، صادرة عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية ، المغرب ، 1992 ، ص211.

6 - فاغية السعدية ، شخصية ابن الخطيب من خلال كتابه نقاضة الجراب في علالة الاغتراب ، عدد خاص ، بندورة ، ابن الخطيب ، مجلة كلية الآداب ، تطوان ، س2 ، ع2 ، 1987 ، المغرب ، ص 131.

وغيرها ، وكل هذا بفضل المشايخ الذين تتلمذ على أيديهم ومنهم صاحب القم الأعلى الأديب أبو الحسن بن الجياب (ت749 هـ) ، والإمام أبي زكريا بن هنديل.[1]

كان والد ابن الخطيب ذو حظوة بالغة لدى سلطان غرناطة ، ولما توفى دعي ابنه ليشغل منصبه ، وبالفعل صار أمين السر لأستاذه ابن الجياب وزير السلطان أبي الحجاج يوسف ، وفي سنة 755هـ قتل سلطان أبو الحجاج ، فخلفه ابنه الغني بالله ، ثم خلع السلطان الغني بالله من منصبه ليتولاه أخوه ، وقد خلع معه وزيره ابن الخطيب ، ومع هذا الحدث أخذت حياته منحى آخر كانت بداية محنته[2] فقد صودرت أملاكه ، وترك مسكنه مكرها واتجه إلى المغرب حيث استقر بمسلا[3] مدة من الزمن. بعدها ساعد السلطان المغربي السلطان الغرناطي المخلوع على استرداد عرشه ، وعاد إلى الأندلس ومعه ابن الخطيب.[4]

وفي العدوة الأندلسية زاد خصوم ابن الخطيب والحاقدون عليه ، وفي مقدمتهم تلميذه ابن زمرك.[5] ، فبدأت مكانته تتراجع ، لذلك قرر ترك السياسة ومتاعبها ، وارتحل إلى إلى تلمسان حيث بلاط عبد العزيز المريني ، غير أن خصومه لم يتركوه وشأنه ، فراحوا يرمونه بشتى التهم ، وكانت أشدها إيلاما اتهامه بالإلحاد والكفر ، فأحرقت كتبه في

71- نفسه ، ص 133.

2 - المراكشي العباسي بن إبراهيم ، الإعلام بمن حل بمراكش وآغمات من الإعلام ، راجعه عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1976 ، 42 ، ص 444.

3 - محمد بن أبي بكر التطواني ، ابن الخطيب من خلال كتبه ، ص 68.

4 - سرى طه ياسين ، لسان الدين بن الخطيب ومنهجه في كتابه (أوصاف الناس في التاريخ والصلات) ، كلية التربية للبنات ، العراق ، مجلة كلية الإمام الأعظم ، ص 362.

- 5ابن زمرك: هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد الصّريحي ، أبو عبد الله ، المعروف بابن زمرك ، هو العلم المشهور ،وزير من كبار الشعراء والكتاب في الأندلس. أصله من شرقيها ، ومولده بروض البيازين (بغرناطة) تتلمذ للسان الدين ابن الخطيب وغيره ، وترقي في الأعمال الكتابية إلى أن جعله صاحب غرناطة (الغني باللَّه) كاتم سره ، سنة 773 هـ ثم المتصرف برسالته وحجابته. ونكب مدة ، وأعيد إلى مكانته ، فأساء إلى بعض رجال الدولة ، فختمت حياته بأن بعث إليه ولي أمره من قتله في داره وهو رافع يديه بالمصحف. وقتل من وجد معه من خدامه وبنيه. وكان قد سعى في أستاذه لسان الدين ابن الخطيب حتى قتل خنقا ، فلقي جزاء عمله. وقد إجمع السلطان ابن الأحمر شعر ابن زمرك وموشحاته في مجلد ضخم سماه (البقية والمدرك من كلام ابن زمرك) رآه المقري في المغرب ونقل كثيرا منه في نفح الطيب وأزهار الرياض. وقال ابن القاضي: كان ابن زمرك حيا سنة 792هـ ، وقد ذكر في مصنف: الكوكب الوقاد فيمن دفن بسبتة من العلماء والزهاد أنظر حول هذا: - للزركلي ، الإعلام ، ج7 ، ص154. كتاب معجم شعراء العرب ، ص153.

ساحات غرناطة ، وطلبوا منه أن يقتل ابن الخطيب ، غير أن الملك المغربي فعل عكس ذلك وقرب منه هذا الوزير الذي نبذه أهله.[1]

لما توفي السلطان عبد العزيز ، خلفه على العرش ولده الطفل السعيد ، الذي غادر بلاط أبيه متحها نحو تلمسان ، ورافقه ابن الخطيب الذي قوى نفوذه ببلاد المغرب ، وساءت العلاقة بين العدوتين فاس وغرناطة ، ثم خلع الطفل السعيد ، ونصب مكانه أحمد بن السلطان أبي سالم مكانه عام 776 هـ، وبمجرد اعتلائه عرش المرينيين أصدر الأمر بإلقاء القبض على ابن الخطيب وحوكم ، وسجن ، وقتل خنقا داخل زنزانته ، وفي اليوم الموالي أخرجت جثته وأضرمت فيها النيران. ثم أعيدت الجثة إلى القبر قبل أن تحترق كلها ، وكان ذلك سنة 776 هـ.[2] ؛ وقد أمر الملك المغربي ببناء ضريح على قبره في باب المحروق بفاس.[3]

-2كتابة المعيار:

في الحقيقة أن مصنّف معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار من أهم الأسفار التي ألفها لسان الدين بن الخطيب لما تضمنته من مادة علمية غزيرة في شتى مناحي الحياة ، ففي هذا المصدر نجد ابن الخطيب يلبس ثوب الناقد للمجتمع الذي عاش فيه ، متحدثا بلغة المتبصر الناظر في تفاصيله ،فقد كان المميز لكل ما تقع عليه العين ويحيط به السمع وتلم به الأحاسيس وتدركه العقول الراقية.

والمعيار هو من أطرف ما كتب لسان الدين بن الخطيب[4] وقد صيغ على هيئة مقامة أدبية ذات منهج وأسلوب فني انفرد به لسان الدين وأبدع فيه ، فكان كتابه عبارة عن وصف نثري مسجع لأهم مدن الأندلس والمغرب[5] ويصف شوقي ضيف أن معيار الاختيار أشبه بكتب الرحلات منها بالمقامات ، فقد اعتاد الرحالة الأندلسيون في رحلاتهم

1- - تؤخذ بعض المعلومات بحذر ، بحكم تفشي الوشايات بين الأفراد في البلاطات ، وانعكس ذلك على ما كتب في المصنفات التي وصلتنا.

2 - حسن الوراكلي ، لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين (دراسة وبيبليوجرافيا) ، ص14.

3 - أحمد بابا بن أحمد الفقيه الحاج أحمد بن عمر التكروري التنبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، دار الكاتب ، طرابلس ، ليبيا ، ط 2 ، 2000. ، ص 105.

4 - بن الخطيب ، المعيار ، ص 3.

5 - حسين مؤسس ، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الإسكندرية ، ط 2 ، 1986 ، ص 585.

على وصف الشعوب وعاداتها وتقاليدها وهو ما مكنهم من كشف الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية وحتى الثقافية.[1]

ولقد أورد ابن الخطيب معيار الاختيار ضمن مؤلفه الأدبي الضخم "ريحانة الكتب، ونجعه المنتاب"، الذي ما يزال مخطوطا، وإن كان بعض الباحثين قد قاموا بتحقيق أجزاء منه.[2]

والمعيار هو عبارة عن وصف شامل لأهم مدن مملكة غزناطة بالأندلس، وأهم مدن المغرب، تطرف فيه ابن الخطيب النواحي الجغرافية والتاريخية والاجتماعية للمدن التي ذكرها في مصنفة[3]، وقد ذكر حوالي مدينة أندلسية بدءا بجبل الفتح[4] (جبل طارق) ليختم عن الأندلس بمدينة رندة[5]، ويبدأ جزؤه الثاني الخاص بحواضر المغرب والمدن التي تفتتحه بالحديث عن مدينة بادس[6] ويكمل كتابه بالحديث عن جوهرة المغرب الأوسط تلمسان[7]

ومن خلال ما جاء في المعيار من مادة علمية شملت جل مناحي الحياة، نستشف دقة ابن الخطيب في الملاحظة وتحليه بالروح الحيوية النشطة، كما أنها تدل على أنه رحالة من الطراز الأول[8] إضافة إلى كونه مؤرخا وأديبا، وهذا مازاد في القيمة العلمية للمؤلف والمؤلف، لأنه يعطينا صورة واضحة وجلية، نظرا لقدرة المصنف على رسم الصورة كما هي دون تزييف أو مبالغة أو انتقاص، وهنا تبرز مهارة وحذق المؤلف.

1 - بلال سالم الهروط: صورة الآخر في الأدب الرحلات الأندلسية، رسالة دكتوراه، جامعة مؤته، 2008، ص 190.

2 - المعيار، ص 03.

3 - المعيار، ص 43.

4 - نفسه، ص 82.

5 - نفسه، ص 130.

6 - نفسه، ص 143.

7 - نفسه، ص 183.

8 - نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، تقديم صلاح جرار، دار المأمون للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2008، ص 70.

أخلاق الأندلسيين وطباعهم:

امتزجت في الأندلس العناصر والأجناس امتزاجا تسرب في تكوينهم ونفوسهم فكانت للأندلسي شخصية متفردة وعقلية جديدة[1]، والكثير من مؤرخي الأندلس تحدثوا عن أصل الأندلس وفضائلهم، فهذا ابن حزم يقوم يقول إن أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية، وإحكام المهن الآلية، تركيون في معاناة الحروب ومعالجات آلاته والنظر في مهماتها"[2] كما أنه يقول أنهم أحرس الناس على التميز لأنهم يقرؤون ويتعلمون لذات العلم وليس للاسترزاق.[3]

ويقول عنهم ابن غالب: أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة وعلو الهمم وفصاحة الألسن وطيب النفوس، وإباء الضيم وقلة احتمال الذل، والسماحة بما في أيديهم، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية ... إلخ.[4]

ومع أن جل المؤرخين الأندلسيين يتفقون حول كثرة فضائل أهل الأندلس ومن بينهم لسان الدين بن الخطيب، إلا أنهم لا ينكرون سوء خلق بعض الأندلسيين وتفشي الكثير من الأمراض الاجتماعية بينهم، وقبل الحديث عن المثالب وجب الحديث عن فضائل أهل الأندلس التي مكنتهم من أن تكون لهم حضارة.

أهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه، فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه.[5]

فيقول ابن الخطيب عن أهل بسطة "ثياب أهلها بالعبير تتأرج"[6] كما أن الكثير من الحواضر الأندلسية اشتهرت بإنتاج أنواع مختلفة من العطور[7] منها ما كان سيستخرج

1 - جمانة إبراهيم داود، صورة المجتمع في المقامات الأندلسية، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، سوريا، 2016، ص 33.

2 - ابن حزم وابن سعيد والشنقدي: فضائل الأندلس وأهلهم، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ط1، 1968، ص ص 32، 33.

3 - نفسه، ص 41.

4 - المقري، نفح الطيب، ج2، ص 763.

5 - نفح الطيب، ج1، ص 223.

6 - المعيار، ص 109.

7 - مثنى فايفل سلمان الفضلي، الحياة الاجتماعية في الأندلس، دار صفحات، سوريا، 2015، ط1، ص 273.

من الليمون والأزهار والحشائش ، كما استعمل الملح والصابون لتنظيف الأسنان[1] ، ويكثر أهل الأندلس من الاستحمام.[2]

والأندلسيون أهل تدبير واحتياط في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال[3] ، وعادة التسول عندهم مستقبحة وغير مقبولة.[4]

ولأهل الأندلس قواعد في ديانتهم ، والغالب عندهم إقامة الحدود وإنكار التهاون بتعطيلها ، وكلهم على مذهب الإمام مالك ، ويذكر لسان الدين بن الخطيب تدين بعض مدن الأندلس والتزام أهلها.[5]

كما يذكر ابن الخطيب بعض مظاهر التكافل الاجتماعي في بعض مدن الأندلس[6] ، وكذلك حسن الخلف وحسن الجوار ، فيقول أن أهل بردة اشتهروا بحسن الخلق ، أما ألمريه فأهلها يراعون الجار وأخلاقهم الطيبة[7] كما يكثر بالأندلس الحرفيين والصناع المهرة.[8]

أما مثالب أهل الأندلس فالمصادر لم تغفل عنها وقد ذكر لسان الدين في كتابه المعيار الكثير منها.

فالمجتمع الأندلسي أيام بني الأحمر تفشت به الكثير من الآفات الاجتماعية ، ومرد ذلك راجع إلى التساهل في مجتمع كثيف السكان متنوع الأجناس ، غابت فيه الشخصية السياسية القوية التي تضرب بيد من حديد ، تضبط المجتمع في مراحل عصيبة ، فظهرت جراء هذا الآثار جلية في انحراف سلوك الأفراد ، حيث راج الخمر والتغزل بالغلمان والدعارة ، وغيرها من المظاهر الدخيلة على المجتمع الأندلسي.[9]

1- Leviprovencal, **la civilization Arabe en espana**, p70.

2 - سامية مصطفى محمد مسعد ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة ، في عصري المرابطين والموحدين ، المكتبة الثقافية الدينية ، ط1 ، 2003.

3 - المعيار: ص 130.

4 - المقري ، نفح الطيب ، ج1 ، ص 220.

5 - المعيار ، ص 104.

6 - نفسه ، ص 89.

7 - نفسه ، ص ص 99 ، 100.

8 - نفسه ، ص 89.

9 - جمانة إبراهيم أحمد: م س ، ص 226.

ومن بين المظاهر التي كانت ولابد ظاهرة في الوسط الإجتماعي نذكر مثلا:

● البطالة: بين شباب الأندلس والتي تؤدي إلى كل المفاسد، فيذكر صاحب معيار الاختيار عند حديثه عن مدينة أندرش تفشي ظاهرة البطالة بين أبناء مترفي المدينة وأغنياها.[1]

● البخل: وعرف عن الأندلسيين بخلهم، فقد ذكر لسان الدين بن الخطيب هذا الأمر في أكثر من مقام، فأشار إلى بخل أهل الأندلس عند حديثه عن مدينة قرطبة فقال: وأهلها في الشدائد لا لا يجزون، أيديهم بالبخل مغلولة".[2]

● اللصوصية وقطع الطريق: وتنتشر هذه الظاهرة عند تراجع قوة الدولة، وعدم تحكمها في زمام الأمور، ويذكرها صاحب معيار الاختيار عند حديثه عن مدينة المنكب فيقول :والحر –بدم الغريب – مطلوب"[3] وهنا يشير إلى أن أهلها شرار يعترضون طريق الغريب بغية السلب، ولو أدى بهم ذلك إلى قتل الغريب، كما يذكر صاحب الكتاب أن أهل هذه المدينة أي المنكب جلهم مسيحين.

● انتشار الفسق والمجون: بين أهل الأندلس وعن هذا يقول المعيار أن مدينة برشانة كان بها للمجون سوق وللفسوق ألف سوق أي أنه كان متفشيا بها[4]، كما يذكر الخمر في معياره وهذا يعني أن شربه كان منتشرا بين أهل الأندلس[5]، وهذا ما أكدته جل المصنفات التاريخية

وكثيرا ما يتحدث عن سوء خلق أهل الكثير من المدن الأندلسية، ومنها مدينة فنيانة بقوله "شرارها لهم في الخيار تأثير"[6] أما مدينة بليش فيقول أن "قلوب ساكنتها

1 - معيار الاختيار، ص 111.
2 - نفسه، ص 130.
3 - نفسه، ص ص 95، 96.
4 - معيار الاختيار، ص 106.
5 - نفسه، ص 106.
6 - نفسه، ص 113.

أقسى من الحجر ، ونفوس أهلها بينة الحسد والضجر ، وشأنها غيبة ونميمة[1] ، أما مدينة أنتقيرة فأهلها أولو شرور وغرور ، وسلاح مشهور".[2]

وعند كلامه عن سوء خلق أهل الأندلس وتفشي بعض المظاهر السلبية بينهم ، فهو غالبا يقصد فئة العامة التي يرى ابن الخطيب أنها منبت كل الشرور.

ومن بين ما أورده لسان الدين بن الخطيب في معياره هو حديثه عن مرض الجذام الذي كان متفشيا في الفترة الوسيطة عامة ، وذلك عند حديثه عن مدينة مالقة فيقول :"وهي بلد يكثر به الجذام".[3] ولا ننسى في هذا المقام أنه العارف بالطب ، فقد ألف كتابا مهما حول الأمراض الوافدة والمعروف في

كما لا نعدم به إشارة إلى الاحتفال الذي كان يقام عندما يحفظ الأطفال سورا من القرآن الكريم.[4]

وهذا النوع من الاحتفالات كان سائدا عند غالبية أهل الغرب الإسلامي[5] ، وهذا إن دل على شيء فيدل على اجتهاد أهل المغرب والأندلس على تنشئة دينية لأولادهم.

وكان للأندلسيين احتفالات جمّة ، من بينها احتفالاتهم بجني المحاصيل الزراعية المتنوعة[6] ، وقد ذكر ابن الخطيب هذا الأمر في كتابه المعيار في عدة مواضع من كتابه.

وكثر الحديث في المصنفات التاريخية عن اعتناء المرآة الأندلسية بأناقتها ، واجتهادها لأن تكون دوما الأجمل غير أننا لا نجد ابن الخطيب في كتابه المعيار يذكر فقط نوعا من أنواع ملبس الأرجل في قوله "أن أهل رندة يلبس نساؤها الموق على الأملد المرموق ، وهو يلبس في الأرجل"[7] على عكس ما وجدناه في كتابه الإحاطة إذ يذكر تفاصيل كثيرة حول المرأة ووسائل الزينة التي كانت تستعملها.[8]

---

1 - نفسه ، ص 92.
2 - نفسه ، ص 127.
3 - نفسه ، ص 91.
4 - نفسه ، ص 87.
5 - نفسه ، 88.
6 - ابن الخطيب / المعيار ، ص 89.
7 - نفسه ، ص 132.
8 - ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج1 ، ص 139.

● **المرأة:**_عند الحديث عن المرأة الأندلسية يتبادر إلى الأذهان مباشرة ما كتبه لسان الدين بن الخطيب عنها واصفا إياها بأجمل العبارات وأكمل الصفات فيقول: وحريمهم حريم جميل ، موصوف بالسحر ، وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، طيب النثر ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، إلا أن الطول يندر فيهن ، ثم يضيف منتقدا لهن: ... وقد بالغن من التفنن في الزينة لهذا العهد ، والمظاهرة بين المصنعات والتنفيس بالذهبيات والديباجة ، والتماجن في أشكال الحلي ، إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها[1] وكل من قرأ هذا أعجب بالمرأة الأندلسية دون أن يراها ، فإن الخطيب يرى أن المرأة هي مغرس الولد وريحانة الخلد وراحة القلب الذي أجهدته الأفكار.[2]

ومع هذا فهو لا يتحرج في ذكر بعض مثالب نساء الأندلس ، مثلما فعل عند ذكره لمدينة برشانة إذ يقول عنهن : فللمجون لها سوق ، وللفسوق ألف سوق ، وعلى وجوه نساؤها طلاقة وفي ألسنتهم ذلاقة ، ولهن بالسفارة في الفقراء علاقة[3]، وهنا ينوه ابن الخطيب إلى اشتغال بعض سنوة هذه المدينة في أعمال الرذيلة المحرمة.

كما أننا نجد في كتاب المعيار ذكر لندرة الجمال في أهل مدينة شلوبانية بقوله :"ولا وسمية الفتيان ولا الفتيات"[4] ، على الرغم من الإجماع الذي وجدناه في المصادر على جمال المرأة الأندلسية بدءا بما ذكره ابن حزم في مصنفه: طوقه الحمامة في الإلفة والآلاف ، وصولا إلى ما كتبه ابن الخطيب عنها في إحاطته ، وفي ما ورد في كتب الأمثال ويؤكد جمال المرأة الأندلسية ، وحرصها على ظهورها في أحسن صورة ممكنة ، وأما ما ورد عند ابن الخطيب في كتابه المعيار ليس إلا بعض الاستثناءات فقط ، ولا يمكن تعميمها على الإطلاق.

● <u>وصف المدن:</u> من خلال تمكن ابن الخطيب من الجغرافيا والوصف ، نجده يدون تعريفات مضبوطة لكثير منأقاليم المغرب والأندلس ، مثلا عندما يذكر سجلماسة بقوله: "تلك كورة وقاعدة مذكورة ، ومدينة محمودة مشكورة ، كانت ذات تقديم ، ودار ملك قديم ،وبلد تبر وأديم ، ومنمى تجر ومكسب عديم ، معدن التمر ، بحكمة صاحب الخلق

1 - لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة ، مج1 ، ص 139.

2- محمد بن أبي بكر التطيواني ، ابن الخطيب من خلال كتبه ، ف2 ، دار الطباعة المغربية ، تطوان ، 1954 ، ص. 91.

3- ابن الخطيب ، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، ص 106.

4 - نفسه. ، ص107.

والأمر ، تتعدد أنواعه ، فتعيى الحساب. وتجم بها فوائده فتحسب الاقتناء والاكتساب ، قد استدار بها لحلق السور الأمر العجاب ، والقطر الذي تحار فى ساحته النجاب ، فضرب منه على عذارها الحجاب باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب[1] ، يحيط بها مرحلة راكب[2] ، فنجده هنا يتكلم بلغة الجغرافي العارف بالمقاييس والمسافات ، المتمرس في الوصف والتقدير ، ولا عجب كما أسلفنا أنه عالم موسوعي في شتى صنوف العلوم والتخصصات.

خاتمة:

في الأخير يمكننا القول أن كتب الأدب والجغرافيا تحوي في ثناياها أهم المعلومات وأصدقها عن أحوال المجتمعات ومن بين هذه المصنفات التي تحمل طابعا أدبيا وجغرافيا كتاب المعيار في ذكر المعاهد والديار التي أعطت صورة حقيقية عن المجتمع الأندلسي ، إذ ذكر فيه ابن الخطيب كل ما شاهده ووقع عليه بنفسه ، فذكر لنا ما هو إيجابي ولم ينحرج في ذكر مثالب أهل الأندلس وبعض طباعهم الذميمة ، وبهذا فإن كتابه كان بمثابة المرآة التي عكست لنا واقع أهل الأندلس وأحوالهم ، وإن كان حسب نظرنا لم ينل حقه في حقل الدراسات التاريخية ، مقارنة بوزنه وقيمته العلمية التي يستفيد منها كثير من المتخصصين في عديد التخصصات الأدبية والجغرافية والتاريخية وغيرها.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

أحمد بابا بن أحمد الفقيه الحاج أحمد بن عمر التكروري التنبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، دار الكاتب ، طرابلس ، ليبيا ، ط2 ، 2000.

ابن حزم وابن سعيد والشنقدي: فضائل الأندلس وأهلهم ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، ط1 ، 1968.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي)، رحلة ابن خلدون ، عارضها بأصولها وعلى حواشيها محمد بن تاويت الطنجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 2012.

مثنى فايفل سلمان الفضلي ، الحياة الاجتماعية في الأندلس ، دار صفحات ، سوريا ، ط1 ، 2015.

المراكشي العباسي بن إبراهيم ، الإعلام بمن حل بمراكش وآغمات من الإعلام ، راجعه عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1976 ، 42.

المراجع العربية والمعربة:

1- اقتباس واضح من القرآن الكرين في قوله تعالى : "فضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبلِه العذاب.." سورة الحديد. الآية 13.

2- ابن الخطيب ، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، ص 106.

أنخل جنثاث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، 2013.
حسين مؤسس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الإسكندرية، ط2، 1986.
سامية مصطفى محمد مسعد، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة، في عصري المرابطين والموحدين، المكتبة الثقافية الدينية، ط1، 2003.
شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النشر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط10. 1987.
محمد بن أبي بكر التطيواني، ابن الخطيب من خلال كتبه، ف2، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1954.
نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، تقديم صلاح جرار، دار المأمون للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2008.

المقالات:

أحمد مختار العبادي، حياة ابن الخطيب المغربية، مجلة البيئة، س1 ع1، صادرة عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية، المغرب، 1992.
سرى طه ياسين، لسان الدين بن الخطيب ومنهجه في كتابه (أوصاف الناس في التاريخ والصلات)، كلية التربية للبنات، العراق، مجلة كلية الإمام الأعظم.

فاغية السعدية، شخصية ابن الخطيب من خلال كتابه نقاضة الجراب في علالة الاغتراب، عدد خاص، بندورة، ابن الخطيب، مجلة كلية الآداب، تطوان، س2، ع2، 1987، المغرب.

الرسائل الجامعية:

بلال سالم الهروط: صورة الآخر في الأدب الرحلات الأندلسية، رسالة دكتوراه، جامعة مؤته، 2008.

جمانة إبراهيم داود، صورة المجتمع في المقامات الأندلسية، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، سوريا، 2016.

المراجع الأجنبية:

- Leviprovencal, **la civilization Arabe en espana**.GP. MAISONNEUVE ET LAROSE. 1961.